تمهيد

فـي علم التربية، يبدو مـن السهل جدّاً أن نضل طريقنـا، وأن ننسى أين كنا ومن نحن. يقول الشـاعر الأنجلو - أمريكي ويسـتان. هيو. أودين Wystan Hugh Auden : يتميّـز بنـو البشـر عـن الحيوانات بثلاثة أشـياء علـى الأقل: نعمـل، ونضحـك ونصلّي. ولذلك، فـإنّ أفضل المعلمين هـم أكثرهم إنسانية، لكـن العصـر الحديث يمكـن أن يتآمـر علينا ليحرمنـا أفضـل ميزاتنا. نحن نعيشـ فـي عصر يمكـن فيه للنـاس الوصول إلـى المعلومات بطرائـق متنوعة وأسـرع مـن أيّ وقت مضـى. إضافة إلى أننـا نواجه خطر الغرق فـي كمّ هائل مـن المعلومات الخالية من المعنى والهدف. وعليه، فنحن، في الأغلب، نضحّي بالسبـب والهـدف فـي سعينا للحصـول على تعليـم يتناسب مـع تحديات هذا الزمن.

ولتلمّـس طريقنا في هذا العالم المتغيّر، جاء كتاب (التعليم التحويلي في عصر المعلوماتية؛ ربط هدف التعليم وطريقة التدريس بالطلاّب) وهو مشروع تكاملي يسعى إلى إعادة تأكيد هوية التعليم عبر استكشاف أصول التدريس من منظـور لا يتأثر بالزمن، ويضع الطلاب في بؤرة الاهتمـام، ويسأل: لماذا نُعلِّم هؤلاء الطلاب؟ إنه يتبنى فكرة أننا بصفتنا معلمين نكون قد فشلنا في أن نعلّم إلا إذا تعلَّـم طلابنـا. وهو يصف مهمتنا في التعليـم بأنها تحولية أكثر مما هي إعطاء معلومات.

يمثّل نموذج أسلوب التدريس التحويلي الأسس التي يقوم عليها هذا الكتاب، والخيط الذي يربط موضوعاته كلّها. وهذا النموذج يسعى إلى تقديم منظور إبداعي عبر امتداداته كافة، بدءاً من تجميع صنوف المعرفة الأصيلة والمعاصرة في حقول طرائق التدريس والفلسفة التربوية، وصولاً إلى إضافة معلومات نفسية وعصبية تنطبق على التدريس والتعليم. وهذا يعدّ امتحاناً للمعلم المُمارِس؛ لأنه يعني تطبيق نظرية التعلُّم على طرائق التدريس. وهو ينقل المعلم من المفاهيم التربويةالمحضة إلى فهم يكون فيه التدريس عملية تحويل وتنوير. أيضاً، هذا الكتاب موجه للمعلمين الذين يحبون التأمل في تحدي الربط بين الهدفين العظيمين للتدريس: الأكاديمي والاجتماعي.

على مدى نحو ثلاثين عاماً، درّسنا طلّاباً في المدارس الحكومية، والجامعات الحكومية، والجامعات الدينية. هؤلاء الطلاب جميعهم ألهمونا الكتابة، ونحن مدينون لهم بذلك؛ طلاب المدارس الابتدائية والمتوسطة والثانوية، طلاب المرحلة الجامعية الأولى، والخريجون الذين كوّن فضولهم الرائع وإخلاصهم محور هذا الكتاب. وإشارة إلى خطابنا التربوي معهم، فقد أوردنا بعض قصصهم في هذا الكتاب، لكننا تعمدنا تغيير أسماء بعض هؤلاء الطلاب ومعظم المعلمين إلى أسماء وهمية. إننا نشكر طلابنا وزملاءنا في جامعة يونيون الذين شجعونا وساعدونا، عبر خبراتهم، في اختبار هذه الدراسة ميدانيّاً.

❋ ❋ ❋

مقدمة

إذا قلنا: إننا نعيش في عالم متغير سريع الخطى، فهذا تقليل كبير من شأن ما نعيشه فعلاً؛ لأنّ معدل انتشار المعرفة، والسهولة التي يمكن الوصول فيها إلى المعلومات أمر على قدر كبير جدّاً من الروعة. عام 1969، كتب نيل بوستمان وتشارلز وينجارتنر Neil Postman & Charles Weingartner عن التغيير في كتابهما التعليم بوصفه نشاطاً تدميريّاً Teaching as a Subversive Activity باستخدام ساعة جرى ضبطها لقياس معدلات الاختراعات المتعلقة بالاتصالات. لقد استخدموا الساعة مقياساً مجازيّاً يعادل ثلاثة آلاف سنة (الدقيقة = خمسين عاماً) ليظهروا كيف أنه في القرنين الماضيين (آخر أربع دقائق) وقعت أحداث جسام بسرعة فائقة؛ فقبل إحدى عشرة دقيقة اختُرعت المطبعة، وقبل أربع دقائق اخترعت القاطرة والتلغراف، في حين اخترع في الدقائق الثلاث الأخيرة الهاتف، والتصوير الفوتوغرافي، والمذياع، والسيارة، والصور المتحركة، والطائرات. أمّا التلفاز، فظهر قبل أقل من دقيقتين. واختُرع الليزر، والاتصال بالأقمار الصناعية والحواسيب في الدقيقة الأخيرة. وفي غضون الثلاثين ثانية الأخيرة، ظهرت الشبكة العنكبوتية (الإنترنت) والحاسوب الشخصي. أما الثواني الخمس الأخيرة، فقد ظهر فيها الهاتف المحمول، والتقنية الرقمية، والتقنية الحيوية، والهواتف الذكية وغيرها. قبل إحدى عشرة دقيقة على هذه الساعة، يتعيّن علينا العودة إلى اختراع الكتابة نفسها، قريباً من بداية الزمن المكتوب.

وأكـد المؤلفان أنّ تلـك الساعة التي استخدماها يمكـن أن تظهر النمط ذاتـه إذا ما استخدمـت في مجالات اختراعـات أخرى، مثل الطـب أو العلوم: قبـل دقيقتين، المضاد الحيوي. قبل دقيقة، جراحـة القلب المفتوح. قبل ثانية واحـدة، أدوية خفضـ الكولسترول. لقد كانـت الفكرة هـي أنّ التغيير ذاته قد تغيّر، وأنّ هناك درجة تغيير جديدة.

وعلى الرغم من سهولة المبالغة بالتغيير، والتشديد على عصرنا الحالي كما لو أنّ هذا العالم لم يعرف أيّ تغيير من قبل، فإنّ وجهة نظرهما تبدو صحيحة. وكما قالا: (فـي اللحظة التي نحدّد فيها نظاماً فاعلاً (من القيم والمعتقدات وأنماط السلوك) ، فإنـه يصبح عديم القيمة؛ لأنّ كثيراً قد تغير فيما نحن نقوم بذلك) (ص.11). التغير يحدث شئنا أم أبينا، وأنماط السلوك يمكن أن تتغير أيضاً، ولكن ببطء.

مـا زال كثير من المعلمين يعتقدون أنّ دورهم هو إعطاء المعلومات، وهو أمـر ربما كان منطقيّاً قبل دقيقة أو دقيقتين علـى ساعة بوستمان ووينجرتنر. في فيلم (العثور علـى نيفرلاند»، Finding Neverland وهو فيلم مؤثر، عُرض منـذ بضـع سنـوات، توجه السيدة سنـو سؤالاً إلـى بيتر بان، الـذي يقوم بدور مؤلـف قصة جيمس باري: أعتقد أنّ الوقـت يطاردنا دون أن ندري، أليس ذلك صحيحاً؟ ما نريد قوله هو: إنّ الوقت يطارد المعلومات كما يطارد الناس.

إنّ كثيـراً مـن المعلميـن لديهم ميـل للعمل الشـاق، والقـراءة، والكتابة ساعـات طويلـة جدّاً؛ لإتقان ما يعتقـدون أنّ هذا ما يُفترضُ تدريسه. ولكنهم عندمـا ينظرون فجأة حولهم، يجـدون أنّ الموضوع قد تغيّر بين ليلة وضحاها. ليس هذا فحسب، بل إنّ الطلاب أنفسهم قد تغيروا أيضاً. كلّ هذا من أعراض ما أطلق عليه ألفين توفلر Alvin Toffler (صدمة المستقبل) حين نُواجَه بفكرة أنّ العالـم الـذي تعلمنا الإيمـان به لم يعد موجـوداً. وفي ضوء هـذا كلّه، ربما يصبح ما ندرّسه اليوم شيئاً من الماضي في المستقبل القريب جدّاً.

يجـادل منظر العولمة الأمريكي توماس فريدمان (Thomas Friedman 2007) بصـورة مقنعـة في أننا نعيش فـي حقبة فريدة من نوعهـا، وأنّ عالمنا مسطّـح. وفي الواقع، فـإنّ تطور المواصـلات والاتصالات في القـرون القليلة الأخيـرة قـد خفض حجـم العالم مـن متوسط إلـى صغير. فمنذ عـام 2000، دخلـت عوامـل تقنيـة (تكنولوجية) كثيـرة دفعة واحـدة، منحت الأفـراد قوة جديـدة للتعـاون والمنافسة عالميّاً عبر منبر (عالـم مسطّح) (ص. 10) . وهذا العالـم المسطّـح، هو العالـم الذي أصبـح فيه الوصـول إلـى كلّ شخص آخر أمـراً سهـلاً، وأصبـح ذلـك ممكناً، علـى نحو ما، بسبـب إمـكان التقارب عن طريـق أجهـزة الحاسـوب الشخصية، وأكبـال الألياف الضوئيـة، والتقدم في برامج الحاسوب التفاعلية.

يقول فريدمان: إنّ التغيير مختلف جدّاً الآن؛ لأنّ الأفراد أصبحوا متمكنين من الاتصال عالميّاً عن طريق وصل الجهاز بالكهرباء. والحقيقة الأهم هي أنه لضمـان استمرار عملهم، يتعيّن على هـؤلاء الأفراد تأكيد (القيمة المضافة) أو المخاطرة بفقدان عملهـم لمتعاقدين خارجيين. وهنا نود أن نسأل: ما قيمتك المضافة بصفتك معلماً؟ ما الفرق الذي يمكن أن تحدثه؟ كيف يمكن للمعلمين مواجهة عالم جديد مثل هذا؟ إنّ موضوع هذا الكتاب يتناول الكيفية التي يدرك فيها المربّون مدى أهمية القيمة المضافة إلى التلاميذ. نحن نعتقد أنّ البداية هي في أن نفهم أولاً لماذا نعلّم.

التدريس المعلوماتيّ

تولي مراكـز عصر المعلوماتية اهتماماً بتقنيـة (تكنولوجيا) الحاسوب، وتحويل المعلومات، وخزنهـا، واسترجاعها، ونقلها. تعرّف ويكيبيديا (2008) ، التي هي نفسها إبداع مثير للجدل من عصر التقنية الرقمية، عصرَ المعلومات بأنـه تحوّلُ الاقتصاد العالمي من الاهتمام بإنتاج البضائع (العصر الصناعي)

إلـى استغـلال المعلومات. وفـي الواقع، فـإنّ عملية البحث عن هـذا التعريف الـذي أوردتـه ويكيبيديا هي في حـدّ ذاتها شهـادة على العصـر الرقمي. لقد كنـا جـزءاً مما يزيد على 2,7 بليـون عملية بحث على محـرك البحث (جوجل) خـلال شهـر واحد من عـام 2008 (فيتش Fisch,2008) . وفيمـا نحن نعدّ هذا الكتـاب، جاء عرض للتدريب علـى برامج أحدث على الإنترنـت، مثل: زوتيرو، ونينج، وبودوماتيك، وتكنوراتي، وبي بي ويكي...Zotero, Ning, Podomatic, Technorati, PB Wiki وغيرهـا. يمكـن لنـا مقارنـة هذا التدفـق المحيّر في البدايـة بتدفق وسائـل النقـل الجماعي التي تنطلـق منها أصـوات الإعلانات الداخلية عند الوصول إلى كلّ محطة جديدة من محطات التوقف على الشوارع. إنّ كلّ يـوم يمـرّ علينـا هو يوم جديـد ومتغيّر. ومع ذلك، هنـاك مؤشرات قوية علـى تكيّـف المعلمين مـع هـذا العصر الجديـد، ولاسيّمـا فيما يتعلـق بكيف نُعلِّم ولماذا.

إنّ الجهـود المبذولة في المدارس لتدريـس المناهج الدراسية المستندة إلـى المعايير بطريقـة صارمة، ولتقويم التدريس عن طريـق امتحانات مقنّنة، ومعاقبـة المعلمين بسبب الفشل نتيجة درجات الامتحان، كلّها أعراض للكيفية التـي يغيّر فيها عصر المعلوماتية النظـم التعليمية. ومن آليات التكيّف المهمة التـي يمكن استخدامها لفهم هذه التطـورات بأنها ذات صلة بالتربية هي طرح أسئلة رئيسـة. ومن خلال الظروف والصِعاب كلّها، علينـا التشديد على أسئلة أساسيـة تذهب إلى أبعد من: ما الذي ندرّسـه؟ و: كيف نقيسه؟ وصولاً إلى: ما الـذي يعنيه ذلك كلّه ؟ و: ما الذي يجب على المدارس فعله؟ و: ما دور المعلّم؟ و: مَـن هـم الذين نُعلِّمهـم؟ و: كيف يتعلّـم الطلاب؟ و: كيف يجـب أن ندرّس؟ والسؤال الأخير هو: لماذا نُعلِّم؟ وما لم نكن دقيقين وواعين، فإنّ رسالة التعليم سوف تضيع هباءً منثوراً.

يمكـن لنا جميعـاً أن نتفق على بعض غايات التعليـم، ومن ضمنها تعزيز أخلاقيـات التعلُّم مـدى الحيـاة، والتعليم لفهم أعمـق للأشيـاء، والعمل على تطـوّر طلابٍ لا يهتمـون بالإنجاز فحسـب، بل بالآخرين كذلـك. تقول جاكلين بروكـس (Jacqueline Grennon Brooks, 2004) : «إنّ القضيـة المطروحـة ليسـت افتقارنـا إلـى المعرفـة أو القـدرة الجماعية، بـل افتقارنا إلـى الرؤية الجماعيـة والإرادة. نحـن لا نعمـل بصـورة جيـدة لإنشاء غرفـة الصف التي نريدها» (ص. 9). إنّنا نتفق مع هذا التقييم، ويمكن إضافة أن الأهداف التربوية يجب أن تكون لها الأولوية مجدّداً.

قالـت المعلمة جاكـي: إنها تتـوق إلى رؤيـة تعليم يهتم بالطـلاب، بأنهم أشخاصـ أولاً، ومن ثم يهتم بالنتائـج. إنّ إحدى الخصائص المقلقة في عصر المعلومـات هي المطالبة بالتماثل والتّطابق، إذ إنّ معايير التدريس في كثير من الولايـات الأمريكيـة تدعو إلى تطبيـق تماثل مبرمج. مثلاً، علـى معلمي الصف الخامسـ كافة في بعض المناطق تدريـس المادة مستخدمين دروساً من الموقع الإلكترونـي نفسـه، وفي اليوم ذاتـه. وتعاني المقاطعات الحضريـة، بالتحديد، الهوسـ الشديـد فيما يتعلـق بالمعايير؛ لأنّ كثيـراً من مدارسها تـرد في قائمة المدارسـ الفاشلـة. وقد جعلت هـذه المقاييس بعض المعلميـن يشعرون بأنهم ليسـوا أهلاً للثقة، فهم يشعـرون بأنهم مجبرون على التدريس بموجب سياسات عقديَّة. ومع الأسف، فإنّ التماثل والتطابق يسيران جنباً إلى جنب.

وإذا مـا أضفنا إلى هذا التصور المسبق ذلك التحالف بين قيادات رجال الأعمـال والسياسييـن الداعي إلـى تدريـس الأساسيات، فسوف يكـون التعليمُ المعلوماتـي طريقةَ التدريس السائـدة في التعليم. وهو أسلـوب تدريس لا يهتم كثيـراً بتحقيـق فهـم أعمـق للقيـم الاجتماعيـة. إنّ التفكير في غرفـة الصف كان يسيـر في الواقـع بالطريقـة الآتية: لدينا موضـوع لشرحـه، لكننا لا نملك

الوقت الكافي لأدائه بصورة جيدة، والامتحانات قريبة، وهي شاقة ومرعبة؛ لأنّ التدريس الناجح غالباً ما يولي جلّ اهتمامه في الوقت الحاضر إلى رفع الدرجات. وعندما يقترح مربّون آخرون أولويات مختلفة، مثل تعليم الطفل المتكامل، فإنهم يُتَّهمون، كما أشارت مارج شيرر (2007) Marge Scherer، بأنهم عاطفيون وغير موضوعيين (ص. 7).

بصفتنا معلمين، ربما كنا نريد بعض التريث والنقاش، وطرح مزيد من الأسئلة، وإتاحة الفرصة أمام الطلاب لطرح الأسئلة أيضاً، وقضاء مزيد من الوقت خارج الصف ليديروا حواراً يعبّرون فيه عن بعض ما يهمهم في حياتهم. على أيّ حال، الزمن هو خصمنا وعلينا التّحرّك. صحيح أنّ الاهتمامَ بحياة مُرضية فكرياً ومسؤولة اجتماعياً أمرٌ مهم، لكنها ليست ما يقبض المعلمون أجورهم لفعله.

لقد ثبت أنّ الأولويات الحالية في التدريس لها عواقبها، فقد أظهرت دراسة مولتها مؤسسات جيتس آند جويس Gates and Joyce نهاية السنة الدراسية 2009، أنّ اثنين من بين كلّ خمسة معلمين (40%) يشعران بالإحباط وخيبة الأمل فيما يتعلق بعملهم (Yarrow , 2009). ولهذا، فإنّ توجهات المعلمين ودوافعهم حيوية وحاسمة عندما يتعلق الأمر باختيارهم التعليم مهنة لهم. وإذا سألنا المعلمين عن سبب اختيارهم تلك المهنة، فإنّ معظمهم سيقولون: إنهم يريدون التأثير في حياة طلابهم بصورة عميقة. ما لا شك فيه أنّ المعلمين يعيشون لحظات من البهجة عند سماعهم طالباً في الصف الأول الابتدائي يقرأ بطلاقة، أو رؤية طالب خجول يظهر قدرات قيادية. إنّ البهجة والإحساس بالإنجاز لدى المعلم يأتيان من مراقبة الطلاب وهم يتعلمون. وعندما يتعلم الطلاب ويتغيرون، فإنّ المعلمين يتغيرون أيضاً. وعلى أيّ حال، يرى المعلمون أنّ الاهتمام الشديد الآن ينصبّ على المعرفة الأكاديمية، أو على أساسيات

هذه المعرفـة. إنّ المهمة والرسالة في عمل المعلمين هي تحفيز تحصيل قابل للقياس لدى طلابنا، وهذه هي أولويتهم.

ولكـن، لماذا لا تعدُّ هـذه الأولوية إنجازاً؟ لأنّ هنـاك جيلاً من الطلاب، ولاسيّمـا مـن ذوي الأداء المتدني، لم يفشلوا فحسب، بـل ضلّوا الطريق أيضاً. وعليه، فإنّ الحلّ يكمن في اهتمام أحادي الرؤية بالمهارات الأساسية والمساءلة. وهذه الأولوية أمرٌ واقع في المدارس الحكومية. لقد أصبح قانون (عدم استثناء أيّ طفل) No Child Left Behind هو المتهم، مع أنّ بعضهم يمكنه القول: إنّ هـذا القانون هو انعكاس للتفكير المضلِّل الـذي كان جليّاً في التعليم على مدى سنوات عـدّة. وبناء على ذلك، فإنّ الاهتمام بالعقـل وحده يحرم الطفل هويته الكاملة؛ فالحياة التي تتّصف بالإنجاز تتطلب أكثر من النشاط العقلي.

المساعدة المطلوبة: رعاية المعلمين وتطويرهم

مـن أجل مجاراة التطورات من حول المعلمين، هناك حاجة إلى رعايتهم وتدريبهـم وتطويرهـم. فطلابنا في مطلع القرن الحـادي والعشرين نشؤوا في بيئـة يسهل فيهـا الوصول إلى المعلومـات عبر تقنية مملّة جـدّاً. وفي كثير من الأحيـان، لا يحصلون إلّا على القشرة الخارجية للتعلم. وقد جرى إقناعهم بأن المعلومـات المفصلة التي يحصلـون عليها هي المعرفة المرجـوّة، وهم يثقون كثيـراً في فهمهـم المزعوم. ويبدو طلابنـا كأنهم مشغولون أكثـر من أيّ وقت مضـى، لكن حياتهم في واقع الأمر بالكاد تتجه نحو الأهداف الأكاديمية. وبدلاً مـن السعي وراء الأهـداف الأكاديمية، نجد نوعاً آخر مـن الانغماس، فطلابنا عالقون في مملكة الأجهزة الإلكترونية، حيث التعلُّم قائم على لمسة أصبع أكثر ممـا هو قائم علـى تشغيل العقل. وقد قرّب هذه الصـورة إعلان تجاري حديث عن إدارة برامج الحاسوب يطرح السؤال الآتي: هل المسألة هي كيفية الحصول على مزيد من المعلومات أم كيفية دمج هذه المعلومات كلّها وربطها معاً؟

إذن، فالرعاية مطلوبة على مستويات عدة لبناء نوع من الفهم العميق الذي يجعل الأفراد يتحولون. إنّ المعلمين العظام لا يدفعون الطلاب إلى مستويات جديدة من التقصّي الذي يبني تعلماً معمّقاً فحسب، بل إنهم أيضاً يجسّدون نموذجاً للسلطة الاجتماعية والروحانية المفقودة من حياة طلابنا. تقول لنا روبن كولنز (2009) Robin Collins كيف بدأت العمل على إيجاد تواصل وثيق بين طلابها من الصف الخامس في مدرسة كولومبيا الابتدائية في وودلاند بارك، كولورادو:

«لإبراز الوعي بالارتباط المتبادل، جرّبت نوعاً جديداً من النشاط لبناء المجموعات. ففي أحد اللقاءات الأسبوعية، وبعد أن قام كلّ واحد من الطلاب بتحيّة طالب آخر، رمى الطالب أو الطالبة كرة من الخيوط الصوفية إلى طالب آخر في الحلقة، بعد ربط طرف الخيط حول يده أو أصبعه. واصلنا قذف الكرة إلى الأمام والخلف حتى بنينا شبكة من الخيوط. عندما أصبحنا متشابكين كلنا، أخذت أسجّل ملاحظات الطلاب». (ص. 82) .

تعمّقت ملاحظات الطلاب إلى حدّ أنهم لاحظوا أنّ شبكة الخيوط تهتز كلما تحرك أحدهم؛ لأننا كلنا متصلون معاً. بصفتنا مربين، يمكن أن نجد أنفسنا بعيدين عن هذه الرؤية التواصلية، بل إننا قد نجد أنفسنا ممزقين من قوى عزل مع أننا نعيش حقبة رائعة من التاريخ. إنّ قصر النظر هو أحد أعراض هذه العزلة. ويحدث قصر النظر التربوي عندما يبدو أننا لا نستطيع رؤية ما هو أمامنا مباشرة، أي طلابنا!. ونحن لا نرى طلابنا عندما نفشل في رؤية من هم حقّاً، وعندما نفشل في تدريسهم كيف يتعلمون.

مثلاً، تنحو معظم ميول المعلمين الطبيعية منحى التحليل أكثر من التركيب. وفي الواقع أنّ كثيرين منا اختاروا مهنة التعليم بسبب قدرتنا على تفتيت مفهوم أو فكرة أو جزء من المعرفة، بحيث تصبح مفهومة أكثر لطلابنا-

وهـي مهـارة تدريس مهمة جدّاً. ونحـن نعتقد أننا إذا استطعنـا إظهار بساطة المفهوم لطلابنا، فإنهم سوف يستوعبونه. لذا، نبدأ بالتفاصيل الصغيرة.

ومـع ذلك، فإنّ الصـورة الكبيرة للتعليم والتعلُّم تتضمـن التركيب أيضاً، ويمكن أن تكون مركزة بوضوح عندما تؤخذ الجوانب كلّها في الحسبان، وبصورة شاملة. ربما يبدو الأمر مغايراً للحدس، لكن الغالبية العظمى من الطلاب تستوعب المفاهيـم الجديـدة عندما يُقدّمُ الموضـوع بصورة عامة قبـل وصفه أو تعليمه بالتحديـد (برانسفورد، براون & كوكينغ، 2000؛ سويـار 2006) (Bransford, Brown, & Cocking, 2000; Sawyer, 2006). ومـع ذلـك، فنحـن غالباً ما ندرّس بطريقة استقرائية، وهي عكس الطريقة التي يتعلم بها معظم طلابنا.

اكتشف المعلّم كارلوس كيف يتعلم طلابه بصورة أفضل عندما كان يصنع لوحة إعلانية لغرفة الصف. كان قد أنجز نصف اللوحة فقط قبل وصول طلابه من الثاني المتوسط إلى غرفة الصف. كان الطلاب منهمكين في محاولة الإجابة عن السؤال: «ما الذي يجعل الشعب شعباً؟» إلى حدّ أنهم أزعجوه معظم اليوم، وأعاقوه عن إكمال اللوحة الإعلانية. انتبه كارلوس فجأة إلى أنه سيكون من الأفضل لو أنّ طلابه ساعدوه على إنهاء المشروع. لذا، جعل من اللوحة أداة للتعلّم، وفي الوقت ذاته واصل العمل على أهدافه الأصلية.

أنجـز الطلاب اللوحة الإعلانيـة بوصفها درسـاً استقصائيّاً مع الدلالات الاجتماعية، والأنثربولوجيـة، والبيولوجية، والتاريخية كلّها. تأثر كارلوس كثيراً مـن استجابة طلابه لـ(اكتشافه) حتى إنه جعل طريقة تدريس تلك المادة جزءاً أساسيّاً من مهاراته التعليمية. لقد احترم كارلوس، بصورة واعية، الطريقة التي تعلم بها طلابه، بعد أن لمس أنّ الرغبة في استكمال ما هو ناقص تعدّ على ما يبدو سمة من سمات معظم الطلاب، وهذه إحدى طرائق التفكير في التعلُّم الاستنتاجي.

ما الأهم؟

مـن السهـل أن يُصاب المعلمون بالارتبـاك فيما يتعلّـق بالأشياء المهمة فعـلاً داخل غرفة الصف؛ لأنّ خطط التعليـم الأمريكية الكبرى للقرن الحادي والعشريـن، بل في العالـم كلّه، تبدو كأنها ترفض المنظـور الأكثر شمولية عمّا يمكـن الإشارة إليه بعبارة (احترام الطالـب) . ولهذا، فإنّ التعليم الذي توجهه النتائـج هو الرائـج، وهو يستخدم درجـات الامتحانات، ليس فقـط دليلاً على التعلُّم، بل هي التعلُّم نفسه.

وعلـى الرّغم مـن أنّ هذا النموذج الفكري فيه شـيء من الصحة- حيث يتعيّـن على الخريجيـن أن ينافسوا في سوق العمل- لكنـه جزء من صورة أكبر للاهتمـام بأهـداف التعليم. وفي الوقـت الذي تعدُّ فيه المقاييـس الموضوعية جـزءاً مهمّاً من التدريس وأحـد مؤشرات النجاح، فإن من المهم عدم المبالغة فـي ذلـك؛ لأنّ كلّ طفل أو مراهق هو أكثر من مجـرد موظف مستقبلي. إضافة إلى أنّ أيّ واحد منا هو أكثر تعقيداً من درجة في اختبار مقنّن. وفي ضوء ذلك، فإنّ ما يهم فعلاً في التعليم ليس ما ندرّسه، بل من ندرّسه.

وقـد دعا روبـرت ستيرنبيـرج Rober Sternberg (2008) إلى قياس ما هو مهـم؛ طـلاب دون تاريخ انتهـاء صلاحية. وأكّـد أننا في حاجة إلـى مدارس تعلّم الطالـب أن يكون محلّلاً، ومبتكراً، وعمليّاً، وحكيمـاً. وبالتشديد، فإنّ تلك الأشياء تمثّـل مجالاً أخلاقيّاً للتعليم. وقد بنى ستيرنبيـرج فكرته على أساس أننا يجب أن نُعلِّم الطلاب ليكونوا فاعلين ومواطنين مشاركين في بناء هذا العالم. وفي المقابل، إذا كان تدريسنـا مـن أجل الحقائق فقط، بدلاً من البحث عما وراء هذه الحقائق، فإننـا نكون قد علمنا الطلاب كيف يصبحون خارج الزمن (ص. 21). ومن المؤكد أنّ المعلميـن يحترمـون الطلاب في النهايـة عندما يؤمنون أنهـم أكثر من مجرد أوعية للمعلومات، ذلك أنّ باستطاعتنا التعليم من أجل الشمولية والعمق.

إنّ قيـم الحياة، والمواطنة، وتمتّـع الفرد بالأخلاق هي أهداف اجتماعية يجـب أن توضـع إلى جانب الـراءات الثلاثة بالإنجليزيـة Reading, Writing, & Arithmetic (القـراءة، والكتابة، والرياضيات) بـدلاً من التدريس من أجل الامتحان، أو ما يُطلق عليها التاءات الأربع بالإنجليزية Time, Teacher Load, Textbooks, and Tests (الوقت، ونصاب المعلّم، والمقرر، والاختبارات) . إنّ النزاهـة الأكاديمية تدعونا إلى تحويل اهتمامنا في اتجاه طلابنا. وعلينا تذكّر أنّ الأولويات والاتجاهات هي التي تحدث التغيير. إنّ ما نطمح إليه، وما يستحقه طلابنا، يجب ألاّ يكون أقلّ من العمل على تحويلهم؛ عقلاً، وجسداً، وروحاً.

تنظيم الكتاب

يتطلـب التوجـه المنفتح على مجـالات أكثر ثراء من المعرفـة أن نصغي إلـى أنفسنا وإلى الآخرين. لكنـه يتطلب أيضاً طرح أسئلـة تأسيسية، وصياغة المبادئ التي تحدّد مفاهيمنا.

ينقسـم هذا الكتاب إلى جزأيـن: الأول، الفلسفة التعليمية، حيث عولجت الأفـكار والافتراضـات الأساسيـة عن التعليـم، مثل: لمـاذا نُعلِّم؟ مـا دافعنا الأساسي للتعليم؟ ما الأهداف المهمة؟ لماذا يؤكد المعلمون في تدريسهم على بعض الأهداف ويستثنون أخرى؟ من نحن بوصفنا معلمين وطلّاباً؟ ما الأدوار الأساسيـة التي يقوم بها المعلم في غرفة الصف؟ ما الذي يعنيه تعليم الطالب المتكامل؟ لماذا يجب أن يضع المعلمون الطلاب في محور عمليتهم التعليمية؟ أمـا الجزء الآخر، فيتناول علم النفس التربوي وأساليب التدريس؛ حيث تناولنا العملية في غرفة الصف، والمفاهيم السلوكية. وناقشنا بعض الأفكار والأسئلة، ومـن ضمنها: ما التدريس مقارنة بالتعلُّم؟ كيف يتعلم الطلاب؟ لِمَ تعدُّ العملية مهمـة جدّاً في التدريـس والتعلُّم؟ كيـف يمكن للمعلمين تعليـم الطلاب كيفية التّعلّـم؟ لِمَ تعدُّ الأسئلة أساسية جدّاً فـي عملية التعليم والتعلُّم؟ كيف نُعلِّم عن طريق طرح الأسئلة؟ كيف يمكن للمعلمين جذب انتباه طلابهم؟

يطـرح الجـزء الأول أسئلة كثيرة تتعلـق بالسبب (لمـاذا؟) لأنّ الفلسفة والنظريـة تتطلب مجموعـة متنوعة من البراهيـن، والنظريـات، والمسوّغات لوجهات نظرنا. وإنّ وضع إجابات عن الأسئلة، أو قبول إجابة شخص عن سؤال ما، أمر عقديّ أيضاً؛ لأنّ الاستجابة تتطلب إيماناً راسخاً وثقة بالسلطة. ونحن نعتـرف أنّ طرح سؤال عـن السبب (لماذا) ، يستدعي بالضـرورة أن نسأل عن المعلّـم والمتعلّم. لكن التوقف عند هذا الحدّ ليس كافياً عند التربويين. وعليه، فإنّ الجزء الثاني يطرح كثيراً من الأسئلة عن الكيفية أو الطريقة، وهو ضروري للبنية النفسية (السيكولوجية) وأساليب التدريس؛ لأنّ على المعلمين أن يكونوا مسؤوليـن عن التخطيط لما يمكن أن يحدث بعد شرح مسوّغاتهم للتعليم، وكي يدعموا ذلـك المسوّغ بالأدلة، ومن ثَمَّ الانتقال من النظرية إلى التطبيق. وتبعاً لذلك، سوف نبدأ بـ(لماذا) ثم ننتقل إلى (كيف) فيما بعد.

في جـزأي الكتاب، صغنـا ثمانية مبـادئ للتعليم التحويلـي، وخصصنا فصلاً واحداً لكلّ منها:

الجزء الأول. لماذا نُعلِّم: مفاهيم ذات صلة

1. كن ملهماً لطلابك
2. ليكن دورك معلماً متكاملاً
3. علِّم الطالب المتكامل
4. الطلاب محور العملية التعليمية

الجزء الثاني. كيف نُعلِّم: إستراتيجيات ذات صلة

5. علِّم لأجل التعلُّم
6. تعرّف كيفية تعلّم الطلاب
7. علّم الطلاب كيفية التعلّم

8. علِّم بطرح الأسئلة

وإضافـة إلى ترتيب الكتاب في فصول، ضَمَّنّا الكتاب أفكاراً نتمنى عليك (حملهـا معك) بعد أن تنتهي من قراءة هذا الكتاب. هذه الأفكار يرافقها سهم يشير إليهـا، والقصد منها تزويد القارئ بمزيد من الشرح والإمعان في النص (انظـر صـ 17) . والهدف منهـا توفير مزيد مـن الوضوح والفهـم طوال هذا الكتاب.

❋ ❋ ❋